الدولة والروابط الاجتماعية
من اجل مقاربة سوسيولوجية

د.محمد قدوسي

جامعة سيدي بلعباس

يقول مكيافيلي في مجال السياسة الواقعية: " لما كان من قصدي أن أكتب شيئا يستفيد منه من يفهمون، فاني أرى أنه من الأفضل أن أمضي إلى حقائق الموضوع بدلا من تناول خيالاته، لا سيما و أن الكثيرين قد تخيلوا جمهوريات و إمارات لم يكن لها وجود في عالم الحقيقة و أن الطريقة التي نحيا فيها، تختلف كثيرا عن الطريقة التي يجب أن نعيش فيها، وأن الذي يتنكر لما يقع سعيا منه وراء ما يجب، إنما يتعلم ما يؤدي إلى دماره بدلا مما يؤدي إلى الحفاظ عليه".[1] يقر أغلب الملاحظين على أن الدولة تعتبر أكبر ابتكار سياسي شهدته المجتمعات الإنسانية عبر الأزمنة.

فحسب رواد الفلسفة السياسية، مثل المفكرين كميكيافيلي وهوبز و لوك و روسو وابن خلدون وابن رشد وهيغل... أصبحت تمثل الدولة في نظرهم حقيقة اجتماعية، اقتصادية و ثقافية ، فأي مجتمع لا يستطيع أن ينشر التطور الحضاري و التنمية الشاملة بدونها ، فحتى و إن اختلفت المنطلقات و التحاليل و وجهات النظر ، نجد شبه إجماع بين الباحثين حول قوة هذا الجهاز السياسي ، و ما يترتب عنه من قوة في آفاق التقدم و تحقيق الوحدة في كنف الحرة العقلانية .[2]

تعتبر الدولة مؤسسة سياسية حسب عبارة ماركس فيبر وهي تنظيم عصري و حديث ، أنشأها المجتمع من أجل تجاوز أطره التقليدية ، التي تتركز و تبنى على أساس رابطة الدم (Le lien du sang) أو رابطة بيولوجية أو دينية أو قبلية ...الخ مثل التنظيمات السابقة على الدولة كالقبيلة و العشيرة . و يمكن القول بأن القرابة تتحدد في أحد معانيها في ضوء العوامل البيولوجية، فالفرد يرتبط بأبيه وأمه بسبب مولده. كذلك يرتبط الأب والأم يبعضهما البعض بسبب معيشتهما المشتركة.

إلا أن هذه العلاقات البيولوجية لا تحدد حتما طبيعة القرابة. إذ يتضح لنا أن القرابة هي ظاهرة سوسيولوجية ترتبط بالظواهر البيولوجية ولكنها لا تتطابق معها بحال من الأحوال. ويمكن القول بأن العلاقات البيولوجية ليست سوى نقطة بدء لظهور المفاهيم السوسيولوجية. فالدولة هي شكل أرقى من التنظيمات السابقة ، هدفها هو تشكيل المجتمع على أساس روابط اجتماعية حديثه ، كيف ذلك ؟

اجتماعيا: تخلق الدولة و تدعم الرابطة الاجتماعية بين أفراد المجتمع، و تحول ذلك إلى إحساس وطني ، فمن طبيعة البشر نجد دائما وجود اختلافات وصراعات و تناقضات داخل المجتمع الواحد . الدولة ككيان سياسي و قانوني ، يجب أن تسير تلك التناقضات (Gestion des Conflits) عن طريق قنوات رسمية للتعبير عنها و بالتالي خلق نوع من الوحدة الوطنية عن

طريق نسج شبكة العلاقات الاجتماعية ، فالدولة حسب الفيلسوف الألماني هيغل ، هي مجتمعا منظما و واعيا بوجود وحدته و مميزاته ، إذ نجد أن الدولة تعبر عن الإحساس بالوحدة ،(Le sentiment d'Unité) و الشعور المشترك ، و بالتالي تساعد على تقوية و تسيير هذا الإحساس و هذا الشعور للصالح العام فالدولة كعلاقة قانونية و سياسية ترتكز أساسا على رابطة اجتماعية ، و على تضامن فعلي فيها يتعلق بالعيش و المصالح و العواطف ، بالإضافة إلى حقوق وواجبات متقابلة.[4]

ثقافيا : هذا الإحساس يقوى و يتجسد عن طريق تركيز و تجميع و تعبئة كل الموارد الرمزية (Mobilisation des ressources symboliques) الثقافية من أجل مصلحة الأغلبية .[5]

فالموارد الرمزية هي مجموعة المعايير و القيم التاريخية و الثقافية و الدينية ، التي تقوي الانسجام بين الفرد و المجتمع من أجل الاندماج الاجتماعي الوطني (Pour l'intégration nationale) ، يقول بارسونس في هذا الشأن : **" الدولة تتشكل وتبنى من خلال مجموعة المعايير و القيم الثقافية المشبعة من طرف الفرد ، الشيء الذي ينتج نوع من الانسجام بين الفرد و المجتمع ".**[6]

اقتصاديا : الدولة في المجال الاقتصادي تعمل على تعبئة كل الموارد المادية والطاقات البشرية من أجل تطوير اقتصادها، بهدف ضمان الحد الأدنى من الحاجيات لأفراد المجتمع فالدولة القوية هي اقتصاد قوي يسمح لها بتقوية سيادتها. وبالتالي تساعد على خلق الثروة المتجددة (la richesse renouvelable) وعلى بناء اقصد إنتاجي مبني على قوة العمل. وليس استهلاكي مبني على هبة الطبيعة. وذلك عن طريق سن قوانين وإرساء قواعد تعمل على إعطاء قيمة للعمل بواسطة معايير كالعقلانية (la rationalité)، التحفيز، الجزاء، قيمة الوقت، المنافسة.

سياسيا : الدولة هي الكيان الذي يحتمل التناقض ويتجاوزه، بل يجعل منه وسيلة للحفاظ على الوحدة. فالتناقض السلمي (conflit pacifique) موجود وضروري لكنه هو المحرك دون ان يكون الغاية. لابد أن يتجاوز ذاته باستمرار إلى تناقض أعلى. وبالتالي الدولة الحديثة تبنى على التناقضات الموضوعية الموجودة بالفعل في المجتمع. إضافة إلى أن الدولة هي عبارة عن جهاز يلعب دور الحكم يقوم بالتفريق بين ما هو ثقافي وسياسي وديني واجتماعي.

في الجزائر الدولة كظاهرة سياسية وقانونية ، كانت دائما ولفترة طويلة مرتبطة بالغزو الخارجي وبالاستعمار. فالمجتمع المحلي لم يبلور دولة محلية ناتجة من واقعه المحلي ولها سيادة اجتماعية سواءا مع الإمبراطورية الرومانية أو العثمانيين وأخيرا الفرنسيين.[6] وبالتالي نظرة وعلاقة المجتمع المحلي بالدولة كانت دائما تحددها معاملة هذه الأخيرة معه، فإما كان يقوم بمساندتها تارة أو يرفضها تارة أخرى، بدون المشاركة في تكوينها.

بعد الاستقلال يقر أغلب الملاحظين والإختصاصيين، على أن البناء السياسي في الجزائر أرتكز على بناء سلطة سياسية قوية على مستوى قمة الهرم السياسي أكثر من الارتكاز على بناء دولة حديثة قوية. [7] فهذا النظام السياسي (الدولة) لم يرتكز في بناء

مؤسساته على الأمة مصدر السيادة والإجماع (فالجزائر لم تشهد بناء الدولة الأمة l'Etat nation كما جاء في بعض الكتابات التاريخية أو في النصوص الرسمية، بل الدولة الوطنية التي ترتكز على الإيديولوجية الوطنية l'Etat nationaliste وليس على الأمة كبنية سياسية، برغم أن هذه الأخيرة موجودة ثقافيا وتاريخيا). بل إن وجوده واستمراره على الشرعية التاريخية هذه الأخيرة أفرزتها ظروف حرب التحرير. واعتماد هذه الأخيرة بدورها من جهة على عائدات الريع الطاقوي من مداخيل البترول والغاز. فوجودها واستمرارها لعقد من الزمن لم يكن مرتبط بمصدرها ولا بفعالياتها ونجاعتها في الميدان. خاصة مع مرور الزمن بل ارتكزت على توزيع الخيرات على شرائح المجتمع بدرجات متفاوتة، أجور سياسية، تدعيم، مجانية بعض القطاعات .

ومن جهة ثانية هذه الشرعية في جانبها الإيديولوجي وفي تعاملها مع المجتمع بجميع قواه الاجتماعية، الثقافية، والسياسية على الإيديولوجية الشعبوية، هاته الأخيرة تصور المجتمع الجزائري كجسد واحد لا تخترقه أي تناقضات ولا اختلافات ولا صراعات مهما كان نوعها، ثقافية، سياسية، عرفية، وخاصة منع بلورت هاته التناقضات على المستوى السياسي. وبالتالي ترفض المعارضة داخل النسيج الاجتماعي وتلغي الصراعات الداخلية.[8]

هاتان الظاهرتان الإيديولوجية الشعبوية، والزبونية، نتج عنها منهجيا بما يسمى في علم الاجتماع السياسي بظاهرة الباتريمونيالية الجديدةle néo-patrimonialisme أو كما يسميها المفكر هشام شرابي بالأبوية المستحدثة [9]. فالدولة النيوباتريمونيالية في الجزائر هي تجسيد لظاهرة الزبونية من جهة، وللإيديولوجية الشعبوية من جهة ثانية. والتي تعني كذلك البنية القبلية والقرابية التي تحكم مسيرة الدولة والسلطة حتى الآن.

هذه الظاهرة تنبع من تحليل معين للنظام السياسي ولطبيعة السلطة السياسية التي تقوم على نظام من القيم والعلاقات التي يعتمدها هذا النظام للحفاظ على نفسه، ومنع تغيير البنية الاجتماعية التي يتجسد فيها. والتجسيد الفعلي للسلطة الأبوية يكمن في الحيز الخاص داخل بنية العائلة. هذا النموذج كما يقول المفكر هشام شرابي : **" يفرض نظام فكر ونظام قيم لا دور لأعضاء المجتمع في تقريره". فهو نظام يتمتع بديناميكية تمكنه من تعزيز قوي الانتماءات الداخلية " العائلية، العشائرية، الطائفية ..."**[10]

فالسلطة الأبوية التي ترتكز على التنظيم العشائري للمجتمع والسلطة معان والمنحدرة من شيخ القبيلة، هذا الأخير أصبحت تلعب في مكانه عائدات الريع الطاقوي دور خلق هذه العشائر les segments أو المعروف بالزبائن les clientèles.

يصف المفكر عبد الباقي الهرماسي المجتمع التقليدي كالشجرة جذعها يمثل المجتمع، الأعراف يمثلون أهم القبائل، وفروع الأعراف يمثلون المجموعات Les clans. فإذا أخذنا نفس المثال في البنية السياسية، نجد في الجزائر بعد الاستقلال ونتيجة لما سبق. أن الجذع يمثل السلطة السياسية، الأعراف يمثلون المجموعات Les clans والأغصان يمثلون مختلف الزبائن les clientèles. فإذا كانت السلطة في المثال الأول، عامل "النسب" يلعب دور كبير في خلق مساندة لها من طرف المجتمع "

فعائدات الريع " هي التي تلعب هذه الوظيفة في المثال الثاني. وبالتالي فظاهرة الباتريمونيالية الجديدة، سوسيولوجيا أفرزت عدة نتائج على المستوى السياسي والاجتماعي في الجزائر :

1- منعت تشكل الدولة كظاهرة سياسية متطورة مقارنة بالسلطة السياسية. باعتبار أن الدولة الحديثة تشكلت في الغرب تاريخيا عن طريق مأسست السلطة السياسيةl'institution alésation du pouvoir هذا من جهة، ومن جهة ثانية فرملت freiné . ونتيجة لذلك الانتقال من الفرد l'individu objet إلى المواطن la personnalité sujet باعتبار الدولة وهذا حسب المفكر إدوارد سعيد تساهم في الانتقال من سلوك القطيع إلى السلوك الحضاري أو من المتوحش إلى التحظر حسب ابن خلدون. فالعلاقة النوعية التي تميز الدولة عن ما قبلها من تشكيلات هي المواطنة la citoyenneté. وتعني التوافق والمشاركة والاعتماد المتبادل. لأن كل مواطن يقوم بوظيفة ضرورية للآخرين. المواطنة علاقة أو رابطة حديثة ذات محتوى اجتماعي، اقتصادي وسياسي تتعدى الروابط والعلاقات ما قبل الوطنية، كالعشائرية والمذهبية أو الجهوية . لأن ماهية مجتمع ما، هي ما ينتجه هذا المجتمع بالفعل على الصعيدين المادي والروحي. ومن ثمة فمفهوم المواطنة مرادف لمفهوم المشاركة في الإنتاج الاجتماعي وفي الشأن العام. وهو على صعيد الفرد الاندماج في المجتمع المدني والدولة.

2- اجتماعيا "الدولة" الجزائرية، لم تساعد أو تعمل على عصرنة المجتمع الجزائري من خلال تعويض أطره التقليدية إلى مؤسسات عصرية. وتعوض القبيلة والعشيرة... على المستوى الرسمي بالجمعية والحزب والنقابة والجماعات الأهلية والمهنية ... بل وظفت هاته الأخيرة توظيفا تقليديان وجعلتها تابعة وغير مستقلة، وهذا ما نلاحظه في الميدان خاصة في المناسبات الاحتفالية والانتخابية. رغم أن الدولة هي استقلالية المجتمع عن الدولة مما دفع بالمفكر هشام شرابي إلى القول بأن المجتمع العربي لا هو مجتمع قديم حافظ على بنيته التقليدية، ولا هو مجتمع حديث استعمل أطره وميكانيزماته التقليدية بآليات وميكانيزمات المجتمع الحديث، وخاصة استحدث كل ما تقليدي وقديم دون تغييره جذريا.[11] إضافة إلى أن هذه الظاهرة خلقت في النسيج الاجتماعي تراتبية اجتماعية جديدة ترتكز على العلاقات الزبونية [12] (relations clientélistes) * هذه التراتبية لا تحددها قوة العمل، الملكية الكد والجدارة والمثابرة، بقدر ما يحددها الريع وكيفية الاستفادة منه. باعتبار أن الدولة الجزائرية ليست منتوج اجتماعي.

وبالتالي جعلت هاته الظاهرة (النيوباتريمونيالية) الدولة الجزائرية دولة تقليدية، تمثل وتجسد كل العلاقات والروابط التقليدية التي وصفت بها المجتمعات ما قبل الدولة. فالدولة الحديثة الغربية هي مبدأ وحدة المجتمع ومعيار انتقاله من نظام الجامعات المغلقة والطوائف والإتحادات التقليدية التي تعزل الأفراد عن الكل الاجتماعي، إلى التحرر من سلاسل الامتيازات

والواجبات وأطر الجماعات والفئات المغلقة. أي إلى عملية اندماج في الكل الاجتماعي وفي النظام العام. حتى أصبحت هاته الدولة عبارة عن عائلة رمزية أو مجموعة من العائلات الرمزية Familles symboliques. تجسيد العلاقات العائلية عبر زبائن مختلفة، من خلال إدارتها ومؤسساتها المختلفة.

الإحالات:

(1) حسين ،هبداوي. التاريخ والدولة. ما بين ابن خلدون وهيغل. دار الساقي ،بيروت ،ص 76.

(2) المرجع نفسه ص110

(3) Blandine kriegel . l'Etat et les esclaves . éd payot2003p53 .

[4]برتران بادي-بيار بيرانبوم . سوسيولوجيا الدولة .ترجمة جوزف عبد الله .مركز الانماء القومي . بيروت .ص29

[5]— Addi.*lahouari*. Etat et pouvoir, éd OPU,1990.Alger p 47.

[6]- ibid ,p.95.

[7]—عبد الحميد، براهيمي . في اصل الازمة الجزائرية .مركز دراسات الوحدة العربية.2001 .ص.33.

[8]-Addi lahouari ,opcit ,p61

[9]—النظام السياسي النيوباتريمونيالي مصطلح لإزنستاد .E. Isenstadt يمثل استمرارية النموذج الفيبري (le modèle wébérien) للسيطرة الباتريمونيالية. هذه الأخيرة هي النموذج التقليدي لبناء سلطة الأمير، الذي كان يسيطر على كل شيء من أجل تقوية سلطته.

[10]- خلدون حسن ،النقيب . الدولة التسلطية في المشرق العربي . مركز د راسات الوحدة العربية . 1996 .ص210 .

[11]- المرجع نفسه ،ص189 .

[12]- الزبونية هي علاقة بين السلطة والمجتمع، أين أفراد المجتمع يظهرون كزبائن (clients) يقومون بمساندة السلطة التي تظهر كراعي (patron) مقابل الاستفادة المادية.